

تحاشي وقوع كارثة في محافظة إدلب السورية

إحاطة حول الشرق الأوسط رقم 56
بيروت/بروكسل، 9 شباط/فبراير 2018. ترجمة من الإنكليزية

ماذا حدث؟ منطقة خفض التصعيد في شمال غرب سورية على حافة الانهيار. قوات النظام السوري، مدعومة بغطاء جوي روسي، تتقدم نحو منطقة إدلب. وسط إعاقة من النظام السوري والميليشيات المدعومة من إيران، اتخذت القوات التركية مواقع لها قرب خطوط الجبهة في مطلع شباط/فبراير.

لماذا حدث؟ المنطقة واقعة تحت سيطرة التحالف الجهادي هيئة تحرير الشام، التي رفضت حتى الآن خفض التصعيد. روسيا، وإيران والقوى الغربية تعتبر هيئة تحرير الشام منظمة إرهابية لا يمكن التفاوض معها وينبغي هزيمتها عسكرياً. لتركيا وجهة نظر مختلفة، لكنها منشغلة بمحاربتها ضد القوات الكردية.

ما أهمية ذلك؟ إن هجوماً للنظام على مركز إدلب قد يكون وشيكاً. ومن المرجح أن يشمل ذلك قصفاً جويًا ومعاركة ضد آلاف المقاتلين في مناطق مكتظة بالسكان، ما سيتسبب في كارثة إنسانية أخرى ويؤدي إلى موجة نزوح كبيرة إلى الحدود التركية، ويزيد الضغوط على قدرة تركيا على التعامل مع الأعداد الكبيرة من اللاجئين السوريين.

ما الذي ينبغي فعله؟ على تركيا أن تنشر قواتها على طول خط الجبهة بالتعاون مع روسيا، التي ينبغي أن تضغط على النظام السوري لتأجيل هجومه، أو حتى الامتناع عن القيام به. سيوفر هذا بعض الوقت لتجدد الجهود التركية لتقليص النفوذ الجهادي العابر للأوطان داخل هيئة تحرير الشام لصالح المقاتلين الأكثر انفتاحاً على خفض التصعيد والتسوية.

I. لمحة عامة

تشكل إدلب، المحافظة الواقعة شمال غرب سورية، مع شرائط من الأراضي في المحافظات المجاورة، أكبر معقل متبقٍ للمعارضة المسلحة في البلاد. كما أنها تشكل كارثة إنسانية تنتظر الوقوع، إذا شن النظام السوري وحلفاؤه هجوماً شاملاً لاستعادتها. ثمة عشرات الآلاف من المقاتلين المتمرسين في المعارك، بمن فيهم العديد من الجهاديين، متمركزين في المنطقة المكتظة بالسكان. إن مواجهة مقاتلي المعارضة المسلحة بشكل مباشر سيكون بكلفة إنسانية باهظة. لقد أدى تقدم النظام شرقاً والقصف الروسي للبنية التحتية في المنطقة أصلاً إلى حركة نزوح واسعة. إذا وصل القتال إلى البلدات الواقعة على الطريق السريع بين حلب وحماة وإلى مناطق أبعد غرباً، فإن الحصيلة ستكون أسوأ بمرات. جميع الخيارات في إدلب سيئة، إلا أن التعاون بين أنقرة وموسكو قد يسمح للقوات التركية بالانتشار بشكل أوسع على طول خط الجبهة بين مجموعات المعارضة المسلحة وقوات النظام. بالنسبة لأنقرة، فإن هذا يشكل مناورة خطيرة في اللحظة الأخيرة؛ لكن من شبه المؤكد أنه السبيل الوحيد لتحاشي هجوم على إدلب من شأنه إذا وقع، أن يجلب، كما حدث في حلب، الويلات على السكان ويؤدي إلى نزوح جماعي نحو الحدود التركية.

في 14 و15 أيلول/سبتمبر 2017، في الجولة السادسة من محادثات أستانة بقيادة روسيا، والتي صممت لإنهاء أو على الأقل احتواء الحرب السورية، اتفقت روسيا وإيران وتركيا على ترسيم "منطقة خفض تصعيد" في إدلب وشرائط من الأراضي في المحافظات المجاورة. إلا أن "الضامنين" الثلاثة للاتفاق

واجهوا مأزقاً فورياً يتمثل في خضوع المنطقة لسيطرة هيئة تحرير الشام، المجموعة المسلحة التي يشكل مركزها الصلب فرع القاعدة السابق في سورية، جبهة النصرة. روسيا وإيران (وكذلك الدول الغربية) تعتبر هيئة تحرير الشام منظمة إرهابية ينبغي تدميرها. رغم أن لتركيا وجهة نظر مختلفة، فإنها وقعت على "البيان المشترك" الذي يلزم جميع الأطراف بمحاربة الجهاديين. بالمقابل، رفضت هيئة تحرير الشام خطة خفض التصعيد. المأزق حاداً على نحو خاص بالنسبة لتركيا، التي يذكر أنها وافقت على تولي المسؤولية عن القطاع الغربي من منطقة خفض التصعيد، حيث يعيش معظم السكان. كما أن تركيا قلقة من أن المدنيين والمقاتلين الهاربين سيتوجهون إلى حدودها إذا تدهور الوضع.

في أواسط تشرين الأول/أكتوبر، انتشرت القوات التركية قرب الحدود الشمالية للمنطقة التي تسيطر عليها المجموعات المسلحة. ذلك الانخراط المحدود، الذي تيسر بفضل التوصل إلى تفاهم بين أنقرة وهيئة تحرير الشام، سمح لتركيا بالتصدي لهدهدها الرئيسي في إدلب والتمثل في احتواء تقدم محتمل نحو الجنوب من قبل المقاتلين الأكراد المرتبطين بحزب العمال الكردستاني في جيب عفرين إلى الشمال. لكن إذا أرادت تركيا تحقيق هدفها الثاني المتمثل في منع تصاعد جديد في أزمة اللاجئين السوريين، فإنها ستحتاج إلى التأثير بالأحداث عبر الجبهة الفاصلة بين المقاتلين الذين تهيم عليهم هيئة تحرير الشام من جهة والنظام السوري من جهة أخرى. ولهذه الغاية، فإن أنقرة بحاجة للانتشار بشكل أعمق في المناطق التي تسيطر عليها المجموعات المسلحة.

في أواخر كانون الثاني/يناير 2018، كثفت تركيا جهودها لتحقيق ذلك الهدف. وفي محاولة لتكرار الاتفاق الذي توصلت إليه مع هيئة تحرير الشام في تشرين الأول/أكتوبر، أمرت أنقرة بتوجه قافلة عسكرية كبيرة لتتخذ مواقعها وراء الطريق السريع الرابط بين حلب وحماة، تماماً على خط الجبهة الذي يفصل بين قوات المعارضة المسلحة والنظام. إلا أن هذه القوات أجبرت على التراجع مرتين، بسبب قيام النظام بقصف الطريق أمامها. قافلة أخرى أرسلت بعد أسبوع وصلت إلى مقصدها؛ وردت على النيران عندما تعرضت للهجوم من قبل ميليشيات مدعومة من إيران.

إن انتشار القوات التركية، الذي سيمتد على طول خط الجبهة في أفضل الأحوال، يوفر الأمل الوحيد – رغم أنه أمل ضئيل – في تحاشي هجوم غير محدود من قبل النظام. يحمل ذلك مخاطر كبيرة بالنسبة لأنقرة، حيث يتطلب منها عقد اتفاقات ضمنية مع قادة هيئة تحرير الشام من جهة وروسيا من جهة أخرى. سترتب على قادة هيئة تحرير الشام القبول بالانتشار التركي (وهو ما يبدو أنهم وافقوا عليه)، ومنع المعارضين في هيئة تحرير الشام أو الميليشيات الأخرى في إدلب من مهاجمة القوات التركية (وهو ما قد يكون أكثر صعوبة)، وردع هجمات مماثلة ضد النظام (وهو ما يرجح أن يكون الأصعب). من غير الواضح ما إذا كان بوسع قادة هيئة تحرير الشام تنفيذ مثل هذا التفاهم مع تركيا دون انقسام التنظيم. إلا أن البديل بالنسبة لهيئة تحرير الشام واضح؛ إذ إن هجوم النظام سيعني خسارتها للسيطرة على الأرض ومقتل العديد من قادتها. بالنسبة لأولئك في التنظيم الذين قد يتطلعون إلى شكل من أشكال الدور السياسي في التسوية ما بعد الصراع – وهناك علامات على أن بعضهم لديه مثل تلك التطلعات – فإن ذلك سيضع حداً لطموحاتهم.

بالمقابل، سترتب على روسيا والنظام وقف الهجوم. النظام، العازم على استعادة كامل البلاد، من المرجح ألا يظهر حماسة كبيرة لوقف القتال. موسكو، من جهة أخرى، قد تكون أكثر حرصاً على تحقيق ذلك، خصوصاً إذا كان يعني استمرار الدعم التركي لعملية أستانة. قد تتمكن الضغوط الروسية، المصحوبة بوجود القوات التركية على خط الجبهة، من إقناع النظام وحلفائه بعدم شن هجوم فوري. ستكون أنقرة بحاجة لتعهد روسي بهذا المعنى. كما أن انتشار القوات التركية قد يوفر للمدنيين والبنية التحتية المدنية قدراً من الحماية من الضربات الجوية.

إذا أخذت هذه التطورات معاً، فإن من شأنها أن تؤدي إلى تحاشي مواجهة عسكرية وأن تقلص تدريجياً نطاق وكثافة المواجهات بين المعارضة المسلحة والنظام. كما أنها ستمنح تركيا بعض الوقت لتسريع جهودها، الجارية أصلاً منذ بضعة شهور، لتشجيع حدوث تحولات داخل هيئة تحرير الشام وذلك بعزل الفصائل الموالية للقاعدة والأشخاص ذوي النزعة الجهادية العابرة للأوطان عن أولئك الذين يمكن إقناعهم بقبول تسوية ما. حتى الآن، تقدمت هذه الجهود ببطء، إذا كانت تقدمت على الإطلاق، جزئياً لأن تركيا كانت منشغلة بحربها ضد الأكراد في عفرين، وجزئياً لأنها تجمدت وسط الاقتتار إلى القبول الدولي وأيضاً، على الأرجح، لأن قادة هيئة تحرير الشام لا يستطيعون إبرام مثل هذه الصفقات بسهولة دون المخاطرة بالاستمرار بإحكام قبضتهم على الحركة. إذا نجح انتشار القوات التركية في تخفيض مستويات العنف، فإن ذلك سيفرض ضغوطاً شعبية في إدلب قد تغير الحسابات بدرجة أكبر داخل حركة تحرير الشام.

مع توغل قوات النظام إلى المناطق الواقعة تحت سيطرة المعارضة المسلحة، فإن انتشار القوات التركية يمثل فرصة، مهما كانت ضئيلة ومحفوفة بالمخاطر، لإنقاذ خطة خفض التصعيد. وهي مساهمة حافلة بالتحديات بالنسبة لأنقرة؛ حيث إن إعادة توجيه حركة تحرير الشام لا يزال على الأرجح عملية دقيقة للغاية. لكن بالنظر إلى المعاناة والنزوح اللذان سيتسبب بهما البديل (هجوم من قبل النظام)، فإن أي خيار، مهما ضعفت احتمالات تحقيقه، جدير بالمحاولة.

II. مناورة تركيا

طبقاً للبيان الختامي للجولة السادسة من محادثات أستانة، فإن الضامنين الثلاثة – روسيا وإيران وتركيا – سينشرون "قوات لضبط خفض التصعيد" في "منطقة أمنية" في إدلب والمناطق المحيطة، استناداً إلى خريطة غير منشورة تمت الموافقة عليها في أنقرة في الأسبوع الذي سبق الاجتماع.¹ ظل البيان صامتاً حول كيف بالتحديد ستقوم هذه القوات بإنجاز تفويضها، أو كيف سيتعامل الضامنون مع حقيقة أن المنطقة المعنية تقع بشكل شبه كامل تحت سيطرة هيئة تحرير الشام.² لكن البيان كرر التزام الضامنين بالاستمرار في القتال ضد جبهة النصرة والمجموعات الأخرى المرتبطة بالقاعدة (إضافة إلى تنظيم الدولة الإسلامية). نظراً لأن هيئة تحرير الشام هي تحالف يضم المنظمة التي ورثت النصرة ومجموعات أخرى،³ وبدا أن المعنى الضمني لذلك هو أن الضامنين، بمن فيهم تركيا، كانوا قد قرروا إخراجها بالقوة. حتى قبل انتهاء اجتماع أستانة، نشرت وسائل الإعلام المقربة من المعارضة السورية والقيادة التركية خرائط أشارت إلى تقسيم منطقة خفض التصعيد في إدلب إلى ثلاثة قطاعات، حيث خصص الجزء الغربي (الممتد من الحدود السورية – التركية إلى الطريق السريع بين حلب وحماة) لتركيا.⁴

بعد اجتماع أستانة بوقت قصير، أثارت تقارير صحفية حول حشد عسكري تركي قرب معبر باب الهوى مع سورية، ووصول ثلاث مجموعات من المعارضة السورية المسلحة المدعومة تركيا من مناطق شمال

¹ "كازاخستان ترحب بنتائج الجولة السادسة لعملية أستانة حول سورية"، وزارة الشؤون الخارجية في جمهورية كازاخستان، 15 أيلول/سبتمبر 2017 (يضم نص "البيان المشترك لإيران وروسيا وتركيا حول الاجتماع الدولي الخاص بسورية في أستانة"). يذكر أنه يفترض أن تنشر كلاً من الدول الثلاث نحو 500 عنصر. Turkey, "Russia, Iran agree on Idlib safe zone", *Hürriyet Daily News*, 15 September 2017. مسؤول أمني تركي رفيع قدر العدد بنحو 1,000. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، أيلول/سبتمبر 2017.

² تقول بعض التقارير إن هناك نحو 10,000 مقاتل لهيئة تحرير الشام في إدلب والمناطق المحيطة بها. انظر على سبيل المثال "Turkish Policy", *Turkish Policy Quarterly*, 14 December 2017. في تموز/يوليو 2017، تحركت هيئة تحرير الشام ضد آخر خصم لها في إدلب، أحرار الشام، واستولت على معظم مواقعها واستوعبت بعض مقاتليها. "هيئة تحرير الشام تسيطر على إدلب السورية"، الجزيرة، 24 تموز/يوليو 2017. لقد سعوا جاهدين للسيطرة على الإدارة المحلية وأسسوا بنية إدارية مفصلة (انظر "الحكم المحلي لهيئة تحرير الشام" ومنظورها للمجالس المحلية"، عمران للدراسات الاستراتيجية، 23 حزيران/يونيو 2017)، لكنها عانت من الاقتتال الداخلي وعدد كبير من الانشقاقات. "Hay'at Tahrir al-Sham (HTS) militants are infighting and defecting", *Al-Shahid*, 21 September 2017.

³ في تموز/يوليو 2016، أعادت جبهة النصرة تسمية نفسها بجبهة فتح الشام وتخلت عن بيعتها السابقة للقاعدة. "Al-Nusra Front cuts ties with al-Qaida and renames itself", *The Guardian*, 28 July 2016. في 28 كانون الثاني/يناير 2017، شكلت جبهة فتح الشام وأربع مجموعات أصغر هيئة تحرير الشام. Mattisan Rowan, "Al Qaeda's Latest Rebranding: Hay'at Tahrir al Sham", *Wilson Center*, 24 April 2017. هيئة تحرير الشام إلى رفض هذه الخطوات بوصفها تكتيكية بحتة ويعبرون في كثير من الأحيان عن هذا الرفض بالإشارة إلى جبهة فتح الشام وكذلك إلى هيئة تحرير الشام التي تهيمن عليها بوصفها "النصرة". أدلة أخرى تشير إلى أن الانفصال حقيقي، حتى لو لم يكن ذلك هو القصد بالأصل. انظر Cole Bunzel, "Diluting jihad: Tahrir al-Sham and the concerns of Abu Muhammad al-Maqdisi", *Jihadica*, 29 March 2017, www.jihadica.com/diluting-jihad.

⁴ "مقاربة معركة إدلب وتحدياتها الوطنية"، مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، 14 أيلول/سبتمبر 2017. "25 thousand soldiers to Idlib", *Yeni Şafak*, 15 September 2017 (Turkish), www.yenisafak.com/dunya/25-bin-askerle-idlibe-2794655. خلال أيام من الانتشار التركي في تشرين الأول/أكتوبر، نشر موقع إلكتروني يعتبر مقرباً من الحرس الثوري الإيراني خريطة تظهر انتشاراً تركيا على ثلاث مراحل إلى الغرب من أوتستراد حلب – حماة وتقدماً موازياً للنظام إلى الشرق منه. "Everything you need to know about the future of Turkey's operations in the Idlib province of Syria", *ISWNews.com*, 15 October 2017, www.english.iswnews.com/682/everything-you-need-to-know-about-the-future-of-turkeys-operations-in-the-idlib-province-of-syria-map.

حلب، تخمينات بأن أنقرة تستعد فعلاً لمواجهة هيئة تحرير الشام.⁵ قادة الهيئة من جهتهم أوضحوا أنهم لم يكونوا يعترضون التعاون مع أي خطة لخفض التصعيد.⁶ في 7 تشرين الأول/أكتوبر، أعلن الرئيس التركي رجب طيب أردوغان أن "عملية جديفة في إدلب السورية" كانت قيد الإنجاز.⁷ عندما بدأ الجيش التركي بهدم التحصينات على جانبه من الحدود في اليوم التالي، مثيراً بذلك تبادلًا لطلقات المدفعية مع هيئة تحرير الشام،⁸ ظهرت تقارير سابقة لأوانها بأن غزواً للجيش التركي وحلفاءه في المعارضة السورية المسلحة قد بدأ.⁹

لكن في اليوم نفسه، شوهد مقاتلو هيئة تحرير الشام يرافقون مجموعة استطلاع تركية كانت قد عبرت الحدود وتسلط على السهل القريب من دارة عزة، وهي مرتفع يشرف على منطقة عفرين إلى الشمال من إدلب وتسيطر عليها وحدات حماية الشعب، الفرع السوري لحزب العمال الكردستاني في تركيا.¹⁰ في 12 تشرين الأول/أكتوبر ذكر أن 30 عربية مصفحة اتبعت نفس الطريق، ومرة أخرى بحماية مقاتلي هيئة تحرير الشام.¹¹ اتخذ الجنود الأتراك مواقع لهم في شريط من الأرض يحيط بنصف الجبهة التي تفصل المناطق التي تسيطر عليها المعارضة المسلحة/هيئة تحرير الشام عن تلك التي تسيطر عليها وحدات حماية الشعب.

هذه التطورات والنقاشات التي جرت بعد ذلك على وسائل التواصل الاجتماعي الجهادية تشير إلى أن هيئة تحرير الشام رضخت للمطالب التركية بالوصول إلى مواقع تشرف على الجبهة مع وحدات حماية الشعب شريطة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للهيئة.¹² في 18 تشرين الأول/أكتوبر أعادت تركيا فتح معبر باب الهوى الحدودي الذي كانت قد أغلقت في تموز/يوليو بعد أن كانت هيئة تحرير الشام قد استولت على

⁵ "Turkey deploys 80 military vehicles near Syrian border", Al Jazeera, 18 September 2017. طبقاً لتشارلز ليستر، فإن مجموعات المعارضة المسلحة التي كانت تتعاون مع القوات التركية في مناطق شمال حلب كانت تحضر لدور مهم في عملية إدلب التركية في مطلع تشرين الأول/أكتوبر، لكنهم استبعدوا في النهاية. "Turkey's Idlib incursion and the HTS question: Understanding the long game in Syria", War on the Rocks, 31 October 2017.

⁶ على سبيل المثال، في 19 أيلول/سبتمبر 2017، أطلقت هيئة تحرير الشام عملية ضد النظام في ريف حماة الشمالي في تحدٍ علني لعملية أسنانة. مصادر مقربة من هيئة تحرير الشام قالت صراحة إن هذه العملية كانت "رسالة لأولئك الذين شاركوا في [اجتماع] أسنانة [السادس] أننا مستمرون في جهادنا". "ما أسباب معركة ريف حماة؟"، غيب بلدي، 19 أيلول/سبتمبر 2017، www.enabbaladi.net/archives/173732. عضو في جمعية المحامين الأحرار في إدلب علق قائلاً: "هيئة تحرير الشام تخاف من الاستقرار، وبإطلاق هذه العملية الجديدة فإنهم يعودون إلى الجهاد. إنهم يعملون بشكل أفضل وسط الحرب والفوضى". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات عبر سكايب، إدلب، 7 تشرين الأول/أكتوبر 2017.

⁷ "Turkey's Erdogan says major operation in Syria's Idlib", Reuters, 7 October 2017.

⁸ "Syria-Turkey border clashes as Ankara prepares for Idlib intervention", The New Arab, 8 October 2017.

⁹ "Erdogan: Turkey backing FSA rebels in new Idlib push", Al Jazeera, 8 October 2017; "Syria war: Turkey-backed rebels launch offensive on Idlib", Euronews, 7 October 2017. بين السكان والنشطاء في إدلب الذين التقههم مجموعة الأزمات، كان التوقع – الذي تم التعبير عنه بشكل مؤكد – أن تركيا ستدخل إدلب لتدمير هيئة تحرير الشام. "الناس يرحبون بالتدخل التركي لأنه سيعني توقف الضربات الجوية الروسية أو الأميركية، وتوسيع العمل الإنساني، وتقديم خدمات أفضل وتحسين الأمن في المناطق المحررة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محام وتاجر، سرمد، 15 تشرين الأول/أكتوبر 2017. من جهة أخرى، وبالتزامن مع إعلان أردوغان، كانت وكالة أنباء الأناضول الحكومية قد أشارت أصلاً إلى مقاربة أقل صدامية. "5 questions on Turkish military's plan in Syria's Idlib", Anadolu, 7 October 2017.

¹⁰ "Turkish army surveys Syria's Idlib before deployment: Sources", Reuters, 8 October 2017. "مصادر لأورينت نيوز: دخول وفد عسكري تركي إلى ريف حلب برفقة تحرير الشام. -http://orient-2017. يذكر أن جهاز أمن هيئة تحرير الشام اعتقل عضواً مصرياً حاول مهاجمة القافلة." "تحرير الشام تعتقل عنصراً مصرياً استهدف سيارات نقل الجيش التركي"، -https://smartnews-agency.com/ar/wires/243400/.

¹¹ "First Turkish military convoy enters Syria's Idlib", Reuters, 12 October 2017.

¹² "How Hay'at Tahrir al-Sham is describing the purpose and extent of Turkish intervention to its own base". تغريدة لسام هيلر، @AbuJamajem. أبو الجماعم مقتبساً عضو مجلس شورى هيئة تحرير الشام أبو الفتح الفرغلي على قناة تلغرام مسائل وفتاوى شامية، 11 تشرين الأول/أكتوبر 2017، -Qanat Masail wa-Fatawa Shamiyyah, 11 October 2017, https://t.me/fatawa_shamia/2030.

الجانب السوري، وقدمت بذلك للحركة أول "منافع التعاون" على شكل رسوم جمارك وترانزيت تذهب للإدارة المدنية المحلية الخاضعة لسيطرة الهيئة.¹³

بين أواسط تشرين الأول/أكتوبر 2017 وأواخر كانون الثاني/يناير 2018، لم تحاول تركيا الانتشار في أي مكان قريب من القتال الفعلي بين المعارضة السورية المسلحة (غالباً هيئة تحرير الشام) وقوات النظام. مع انتهاء القتال ضد تنظيم الدولة الإسلامية تقريباً في شرق سورية، بات بوسع النظام تحويل اهتمامه وقواته إلى مناطق أخرى واقعة خارج سيطرته. منذ أواخر تشرين الأول/أكتوبر 2017، تدفقت قواته على أجزاء من الجبهة جنوب حلب وشمال حماة.¹⁴ بحلول أواخر كانون الأول/ديسمبر، حقق الهجوم أول مكاسبه المهمة، عندما خسرت المعارضة المسلحة أبو دالي والمناطق المجاورة لها شمال حماة.¹⁵ بعد هذا الاختراق، شن النظام هجوماً على ثلاثة محاور، من الشمال والشرق والجنوب، مكنه من استعادة المزيد من الأراضي. هذا دفع الرئيس التركي أن يطلب من نظيره الروسي كيخ جماح حليفه، وإلا انهارت عملية أستانة، ودفع رئيس الوزراء بن علي يلدريم إلى التهديد ضمناً بأن تركيا ستسحب دعمها للمحادثات التي ترعاها روسيا.¹⁶

في نهاية كانون الثاني/يناير، ومع استمرار هجومها على عفرين بزخم كبير، تحركت تركيا أخيراً لنشر قوات المراقبين قرب خط خفض التصعيد شرق إدلب. في 24 كانون الثاني/يناير، وصلت مجموعة استطلاع تركية إلى منطقة العيس، نحو 7 كم شرق أوتوستراد حلب - حماة، وإلى مسافة 3 كم فقط من الجبهة.¹⁷ بعد خمسة أيام، وفي اليوم الأول من مؤتمر السلام الذي ترعاه روسيا في مدينة سوتشي، تحركت نحو 100 عربة عسكرية تركية إلى المنطقة فيما بدا أنه محاولة لإقامة مركز مراقبة. لكن قبل 10 كم من وصولها إلى مقصدها المفترض، توقفت قافلة العربات بسبب قيام النظام بقصف الطريق أمامها.¹⁸ قافلة أخرى واجهت نفس النتيجة في اليوم التالي فاستدارت وتوجهت عائدة إلى تركيا.¹⁹

في طريق العودة، أصيبت القافلة بانفجار سيارة مفخخة بينما كانت تعبر بلدة الأتارب. أدى الهجوم إلى مقتل جندي وجرح آخر، إضافة إلى موظف مدني. يبقى من غير الواضح من هي الجهة التي نفذت الهجوم (الذي لم تعلن أي جهة مسؤوليتها عنه). الأركان العامة التركية حملت المسؤولية لوحدة حماية الشعب، في حين يشير النقاش على القنوات الجهادية إلى أن الفاعلين قد يكونون معارضين في هيئة تحرير الشام بهدف إفشال تعاون الحركة مع تركيا.²⁰

ذكر أن الرئيسان أردوغان وبوتين ناقشا الحوادث في اليوم التالي، عندما اتفق كلاهما "على تسريع إقامة مواقع المراقبة في إدلب السورية".²¹ بعد ذلك بأسبوع، في 5 شباط/فبراير، تمكنت قافلة تركية ثانية من الوصول إلى العيس، لكنها تعرضت لمباشرة لإطلاق النار من ميليشيات مدعومة من إيران، على ما ذكر،

¹³ ملاحظة لمجموعة الأزمات، سرمداء، 18 تشرين الأول/أكتوبر 2017؛ "Ankara reopens Idlib border crossing as Turkish soldiers build presence in northern Syria", Syria Direct, 18 October 2017.

¹⁴ مواجهات بين قوات النظام وتحرير الشام، سمات نيوز، 13 تشرين الثاني/نوفمبر 2017، <https://smartnews-agency.com/ar/wires/246830/>.

¹⁵ "الجيش السوري يصل إلى 'أبو دالي' في ريف إدلب"، الأخبار، 29 كانون الأول/ديسمبر 2017، www.al-akhbar.com/node/288617.

¹⁶ "Turkey warns Russia that Syria peace process could collapse due to regime attacks", *Hürriyet Daily News*, 13 January 2018.

¹⁷ "رتل عسكري تركي يدخل ريفي إدلب وحلب"، *عنب بلدي*، 24 كانون الثاني/يناير 2018، www.enabbladi.net/archives/201187.

¹⁸ صفحة فيس بوك للقيادة العامة للقوات المسلحة السورية، 30 كانون الثاني/يناير 2018، www.facebook.com/General.Command.Armed.Forces963/posts/1571897286263358 "مع

استمرار العدوان على عفرين، الجيش يستهدف رتلأ عسكرياً تركياً ويبعده عن العيس في جنوب حلب"، *الوطن*، 31 كانون الثاني/يناير 2018، <http://alwatan.sy/archives/137695>. خبير روسي في شؤون الشرق الأوسط حمل مسؤولية القصف لقوات الأسد، مدعياً أن القصد منه كان إرسال رسالة للمشاركين في عملية أستانة المجتمعين في سوتشي. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، شباط/فبراير 2018.

¹⁹ اتصال أجرته مجموعة الأزمات عبر واتس أب مع صحفي سوري على صلة بمجموعات المعارضة المسلحة غير الجهادية، 31 كانون الثاني/يناير 2018.

²⁰ "Ankara-Moscow dealings still tangled as Idlib smoke clears", *Al-Monitor*, 31 January 2018.

²¹ "Turkey, Russia agree to speed up establishing observation posts in Syria's Idlib: Source", *Reuters*, 31 January 2018.

في المناطق التي يسيطر عليها النظام.²² هذه المرة، ردت تركيا النار بصواريخ أطلقت من أراضيها، وانتهت المناوشات بحلول المساء. قتل جندي وجرح أربعة آخرون، إضافة إلى موظف مدني.²³

III. أهمية إدلب بالنسبة لتركيا

بالنسبة لتركيا، فإن تأمين إدلب مهم لعدد من الأسباب. مع استمرار حربيها ضد حزب العمال الكردستاني،²⁴ فإن أنقرة تنظر إلى صعود أسهم الفرع السوري للحزب، وحدات حماية الشعب، بوصفه تهديداً استراتيجياً. تهدف تركيا إلى الحد من توسع وحدات حماية الشعب أو عكسه.²⁵ من عفرين، كان بوسع وحدات حماية الشعب استغلال الاضطرابات أو الفراغ في السلطة في إدلب لتوسيع سيطرتها إلى الجنوب. وبمركز القوات التركية في التلال المشرفة على هذه المناطق، بوسع أنقرة وقف مثل هذا التقدم وتحضير حملتها العسكرية ضد الجيب. كما وفر التحرك ضغوطاً اقتصادية مفيدة ضد وحدات حماية الشعب؛ إذ إنه وحتى الهجوم التركي، كان سكان عفرين يتمتعون بالقدرة على الوصول إلى المدن الحافلة بالأسواق والواقعة تحت سيطرة هيئة تحرير الشام، ما نتج عنه أعمال تجارية عادت بالفائدة على وحدات حماية الشعب وهيئة تحرير الشام على حد سواء.²⁶ من المواقع التي اتخذتها في تشرين الأول/أكتوبر، بات بوسع أنقرة قطع خط الحياة الاقتصادية هذا متى شاءت. وفعلت ذلك مباشرة حالما بدأ الهجوم.²⁷

إن الانتشار على الحدود الشمالية لإدلب، الذي يمكن أن يتعزز لاحقاً ربما بمناطق عازلة على طول أجزاء أخرى من الحدود، قد يساعد في معالجة ما يعتبره المسؤولون الأتراك ثاني أكبر مخاوف أنقرة فيما يتعلق بشمال غرب سورية، أي منع وصول موجة ثالثة من اللاجئين – الذين قد يكون بينهم آلاف الجهاديين –

²² تغريدة لريام دالاتي، 5 شباط/فبراير 2018، Tweet by Riam Dalati, 5 February 2018, <https://twitter.com/Dalatrm/status/96056154216>.3988481.

²³ "Turkish soldier killed setting up military post in northwest Syria", Reuters, 6 February 2018.

²⁴ Berkay Mandıracı, "Turkey's PKK Conflict Kills almost 3,000 in Two Years", Crisis Group Europe & Central Asia Commentary, 20 July 2017; Crisis Group Middle East & North Africa Report N°243, *Managing Turkey's PKK Conflict: The Case of Nusaybin*, 2 May 2017.

²⁵ تقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا رقم 176، "خيار حزب العمال الكردستاني المنذر بالسوء في شمال سورية"، 4 أيار/مايو 2017. بالنظر إلى الصلات التنظيمية العميقة بين حزب العمال الكردستاني ووحدات حماية الشعب، فإن أحد المخاوف الرئيسية في أنقرة هو أن الخبرة القتالية والأسلحة التي تم اكتسابها في سورية استخدمت وتستخدم ضد تركيا داخل حدودها. مصدر آخر للقلق هو أن السلطة والشهرة التي اكتسبتها وحدات حماية الشعب في سورية ستعزز جاذبية حزب العمال الكردستاني وشرعيته الدولية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين أتراك، 2015-2017.

²⁶ دارة عزة، حيث أقامت تركيا مواقع لها في أواسط تشرين الأول/أكتوبر، تسيطر على الممر التجاري بين عفرين وإدلب. حتى تموز/يوليو 2017، كان هذا الممر حيوياً لعفرين، المحاطة لولاه بالأراضي التركية وحلفاء تركيا، والنظام السوري. جرى عكس التدفق التجاري في تموز/يوليو 2017، عندما سيطرت هيئة تحرير الشام على معبر باب الهوى الذي يخدم إدلب. رداً على ذلك، أغلقت تركيا الحدود أمام النشاط التجاري، ما أجبر التجار على تمرير تجارتهم من خلال معبر باب السلامة (شمال محافظة حلب، والواقع تحت سيطرة مجموعات المعارضة المسلحة المتحالفة مع تركيا) وعفرين للوصول إلى إدلب. المفارقة أن تركيا، في محاولتها معاقبة هيئة تحرير الشام، حولت المنطقة الخاضعة للسيطرة الكردية إلى ممر حيوي للمواد إلى إدلب، وحولت رسوم ترانزيت إلى جيوب أعدائها الأكراد. هيئة تحرير الشام، التي أحكمت سيطرتها الكاملة في تموز/يوليو 2017 على دارة عزة أيضاً، استفادت على أي حال من التدفق التجاري. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات عبر سكايب مع رئيس مجلس محلي سابق من إدلب، إسطنبول، 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2017؛ ومع ناشط وعامل في الشأن الإنساني، غازي عنتاب، 24 تشرين الثاني/نوفمبر 2017. انظر "ما الذي حدث في إدلب بعد أن حظرت تركيا استيراد مواد البناء؟"، *الاقتصاد*، 27 آب/أغسطس 2017.

²⁷ رغم الوجود التركي في المنطقة، فإن الممر التجاري ظل مفتوحاً حتى بداية الهجوم التركي على عفرين في 20 كانون الثاني/يناير، حيث شغلت هيئة تحرير الشام المعبر بين المناطق التي تسيطر عليها المعارضة المسلحة وتلك التي يسيطر عليها الأكراد. في 18 تشرين الثاني/نوفمبر، أقام الجيش التركي نقطة مراقبة ثالثة في الشيخ عقيل، نحو 15 كم شرق دارة عزة، وفرض بذلك حضوراً على طول خط السيطرة الذي يفصل جيب عفرين عن إدلب. "Turkey" *Hürriyet Daily News*, 24 November 2017, "builds third 'observation spot' inside Idlib", رتل تركي إلى الأراضي السورية لاستلام النقطة الثالثة في منطقة الشيخ عقيل بريف حلب"، وكالة أنباء إباء، 18 تشرين الثاني/نوفمبر 2017، <https://ebaa-agency.com/news/2017/11/3337>.

إلى تركيا.²⁸ من خلال السيطرة على المناطق المجاورة للحدود، يمكن للقوات المسلحة التركية أن تستوعب النازحين، وأن تضمن سلامتهم الجسدية، وأن توفر للوكالات الإنسانية إمكانية الوصول إلى اللاجئين على الأراضي السورية بدلاً من أن يكون ذلك على الأراضي التركية.²⁹

إلا أنه من غير المرجح أن يكون هذا الانتشار كافياً للتعامل مع التبعات الإنسانية لهجوم شامل للنظام على غرب إدلب.³⁰ نحو نصف ما يقدر بـ 2.65 مليون شخص يعيشون حالياً هناك هم من النازحين، الذين قدموا إلى إدلب هرباً من هجمات النظام في أجزاء أخرى من سورية أو نتيجة اتفاقات الإخلاء. لدى هؤلاء الناس ما يدفعهم للخوف من الوقوع تحت سيطرة النظام مرة أخرى.³¹ تشير التجربة السابقة – مثل حصار حلب في العام 2016 – إلى أن مثل هذا الهجوم سيكون مصحوباً بحملة قصف مكثفة. إذا حدث ذلك، فإن العديد من السكان المحليين، الذين كان من الممكن أن يظلوا في مناطقهم ريثما ينتهي الهجوم، من المرجح أن يهربوا أيضاً. في المحصلة، يمكن لنحو مليون شخص أن يتدفقوا على الحدود التركية، ما سيشكل حالة طوارئ إنسانية ستجعل من الصعوبة بمكان، إن لم يكن من المستحيل على تركيا المحافظة على سياستها الحالية في احتواء موجة جديدة من اللاجئين داخل سورية.³²

IV. سيناريوهات خفض التصعيد

يصعب تقييم مدى وطبقاً لأي سيناريو سيحدث مثل هذا الهجوم. مع المكاسب التي حققها النظام السوري مؤخراً، والتي توجها باستيلائه في 20 كانون الثاني/يناير على أبو الضهور، التي تحتوي قاعدة جوية وتقع على مفترق طرق استراتيجي يؤدي غرباً إلى سراقب ومعة النعمان، فإنه يسيطر الآن على معظم المناطق التي كانت تقع سابقاً تحت سيطرة المعارضة المسلحة والتي حددها اتفاق أستانة في أيلول/سبتمبر على أنها تخضع للسيطرة الروسية/الإيرانية. السؤال الحرج هو ما إذا كان التقدم سيستمر نحو محيط القطاع المخصص لتركيا (أوتوستراد حلب - حماة). إن نقل المعركة إلى الغرب سيؤثر بسرعة على المراكز السكانية؛ وحينئذ يُتوقع أن يتصاعد عدد الضحايا والنازحين بشكل كبير.

²⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول أمني تركي، أنقرة، 26 تشرين الأول/أكتوبر 2017. "Turkish PM says Idlib operation aims to prevent migrant wave from Syria", TRT World, 10 October 2017.

²⁹ لقد نشأ أصلاً في المناطق المجاورة لمعبر باب الهوى الحدودي نحو 200 مخيم غير رسمي للنازحين، يقيم فيها نحو 220,000 نازح، العديد منهم يعتمدون بشكل رئيسي على المساعدات الإنسانية في حياتهم. المخيم الأكبر هو عتمة، الذي يضم 66,000 نسمة، والواقع داخل المنطقة التي تنتشر فيها القوات التركية حالياً. مفاوض الأمم المتحدة السامي للاجئين، مصفوفة المراقبة المتكاملة لمواقع النازحين، تشرين الأول/أكتوبر 2017. أحد الصحفيين قال: "النازحون في إدلب الذين لا يستطيعون دفع أجرة مكان يعيشون فيه ينتقلون إلى هذه المخيمات". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات عبر سكايب مع صحفي في عتب بلدي، غازي عنتاب 24 أيار/مايو 2017.

³⁰ يمكن للمشاهد الصارخة في تقرير لهيئة الإذاعة والتلفزيون الأسترالية في 7 شباط/فبراير 2018 أن تشكل نذيراً لما هو أسوأ. انظر الخبر على الموقع www.abc.net.au/7.30/theres-another-humanitarian-crisis-in-syria-that/9406482.

³¹ رقم 2.65 مليون هو الرقم الأحدث الذي قدمته الأمم المتحدة. "Recent Developments in North-western Syria", UN Office for the Coordination of Humanitarian Affairs (OCHA), 3 January 2018, <https://reliefweb.int/report/syrian-arab-republic/turkey-syria-recent-developments-north-western-syria-03-january-2018>.

التركي للدبلوماسية العامة يتحدث عن عدد إجمالي للسكان يبلغ نحو 4 مليون. "What are Turkish troops doing in Syria's Idlib", TRT World, 10 October 2017. منذ خريف العام 2016، تم التوصل إلى أكثر من 10 اتفاقيات إخلاء منفصلة تقضي بأن يتسلم النظام مناطق يحاصرها لكن تسيطر عليها المعارضة المسلحة في حلب وحمص وريف دمشق، بينما يتم إخلاء المقاتلين والمدنيين، في معظم الحالات إلى مناطق تسيطر عليها المعارضة في الشمال الغربي. "Timeline: Syria's 13 'people evacuation' deals", Al Jazeera, 16 May 2017.

³² منذ أواسط كانون الأول/ديسمبر، دفع القتال في المناطق ذات الكثافة السكانية المنخفضة شرق الأوتوستراد (نحو 300,000 نسمة من إجمالي السكان البالغ عددهم 2.65 مليون في كل الشمال الغربي الذي تسيطر عليه المعارضة المسلحة طبقاً لأرقام الأمم المتحدة) أكثر من ربع مليون شخص إلى الهرب نحو مناطق أبعد إلى الشمال والغرب، وبالتالي نحو الحدود التركية. "Recent Developments in Northwestern Syria (Idleb Governorate and Afrin District)", OCHA, 30 January 2018, https://reliefweb.int/sites/reliefweb.int/files/resources/Latest_Developments_in_North-western_Syria_20180130.pdf.

تشير التقارير إلى أن الوضع على الحدود حرج أصلاً. "Turkey/Syria: Border Guards Shoot, Block Fleeing Syrians", Human Rights Watch, 3 February 2018.

سيكون الغطاء الجوي حيوياً لمثل هذا التقدم. الخبراء الروس في الشأن السوري الذين تمت مقابلتهم في أواسط كانون الأول/ديسمبر 2017 لم يجدوا شهية كبيرة في موسكو لحملة أخرى توازي حصار شرق حلب من حيث الطول، والدمار والتبعات الإنسانية. الرئيس فلاديمير بوتين، الذي يواجه إعادة انتخابه في آذار/مارس 2018، أعلن النصر في سورية في 11 كانون الأول/ديسمبر وأعلن انسحاباً جزئياً للقوات الروسية.³³ إلا أن التصريحات الأخيرة لمسؤولين روس كبار، والتسارع المتزايد للضربات الجوية الروسية للبنية التحتية المدنية، تشير إلى أن صبر موسكو بدأ ينفد مما يبدو أنه إحجام أنقرة عن تولى مسؤولية غرب الأوتوستراد.³⁴

إضافة إلى قيام النظام بشن هجوم متعمد على إدلب الواقعة تحت سيطرة المعارضة، يمكن للتصعيد أن يتخذ أشكالاً أخرى. إن عمليات ناجحة للمعارضة المسلحة تستهدف قوات أو حلفاء النظام، مثل إسقاط الطائرة الروسية في 3 شباط/فبراير 2018، أو هجوم جهادي كبير في مكان آخر سيثير ردوداً من شأنها أن تطلق ديناميكية تصاعدية تجر روسيا إلى التدخل وتولد زخماً لسحق المعارضة المسلحة في الشمال الغربي واستعادة المنطقة إلى سيطرة النظام، بصرف النظر عن الكلفة الإنسانية.³⁵

من المواقع التي كانت "قوات ضبط خفض التصعيد" تسيطر عليها حتى أواخر كانون الثاني/يناير، على بعد 30-60 كم من خطوط الجبهة، لم تتمكن هذه القوات من إحداث أثر على تقدم مثل هذه السيناريوهات، ناهيك عن وقف التقدم نحو الصراع أو عكس هذا التقدم. لتحقيق خفض التصعيد وتعزيز وقف إطلاق النار، سبترت على تركيا أن تنتشر إلى مناطق أعمق في المنطقة المخصصة لها - كما بدأت أخيراً بفعله في 5 شباط/فبراير.³⁶

كان انتشارها على طول أوتوستراد حلب - حماة³⁷ يتطلب أولاً شكلاً من أشكال الاتفاق مع هيئة تحرير الشام. لا يمكن تصور أنه كان يمكن لتركيا أن تضع قواتها قرب مقرات هيئة تحرير الشام دون تلقي تلميحات، على الأقل بشكل غير علني، من قادة هيئة تحرير الشام بأنهم سيفعلون ما بوسعهم لوقف الأعمال الهجومية في المنطقة، سواء ضد القوات التركية مباشرة أو ضد النظام، ما سيخاطر بوضع القوات التركية في تقاطع النيران. لقد جرت محاولة أولى للانتشار في أواخر كانون الثاني/يناير مع ضمانات أمنية صريحة، ما عُد سابقة للمزيد من الخطوات.³⁸

يبدو من المرجح أن موافقة موسكو كانت شرطاً ثانياً. المحاولة الأولى في 29 كانون الثاني/يناير تمت أصلاً بالتنسيق مع موسكو،³⁹ التي تبين أنها غير قادرة على إقناع حليفها السوري بالتعاون.⁴⁰ القصف الذي

³³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، موسكو، 13 كانون الأول/ديسمبر 2017.

³⁴ "Primary anti-terrorist objective in Syria is defeating Jabhat al-Nusra, Lavrov says", TASS, 27 December 2017; "Jabhat al-Nusra militants in Syria to be wiped out next year: Russian general staff", TASS, 27 December 2017.

³⁵ "Russian jet shot down in Syria's Idlib province", BBC, 3 February 2018. هجمات جديدة على قاعدة حميميم الروسية (كما وقع في مطلع كانون الثاني/يناير) أو الإمساك بعناصر روس (كما كاد أن يحدث في أيلول/سبتمبر) يمكن أن تكون أشكال أخرى من مشعلات الرد. "Who is attacking Russia's bases in Syria? A new mystery emerges in the war", *Washington Post*, 10 January 2018; Mark Galeotti, "Not-so-soft power: Russia's military police in Syria", *War on the Rocks*, 3 October 2017.

³⁶ طبقاً لمسؤول أممي تركي قابلته مجموعة الأزمات في أواخر تشرين الأول/أكتوبر، فإن الخطة تقضي بإقامة 12 نقطة مراقبة على محيط القطاع التركي، أوتوستراد حلب - حماة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، أنقرة، 26 تشرين الأول/أكتوبر 2017.

³⁷ طبقاً للفهم التركي، فإن المحيط الغربي للمنطقة التي يسيطر عليها النظام ينبغي أن تكون سكة حديد حلب - حماة، التي تمر على بعد 10 إلى 20 كم شرق الأوتوستراد. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، أنقرة، شباط/فبراير 2018. في مطلع شباط/فبراير، كان خط الجبهة بين المعارضة المسلحة وقوات النظام على بعد عدة كيلومترات إلى الغرب من سكة الحديد، وبموازاتها تقريباً.

³⁸ أكد عدة شيوخ جهاديين بارزين في إدلب أن القافلة التركية عبرت مع مرافقة وبضمانات أمنية صريحة من قيادة هيئة تحرير الشام، استناداً إلى قرار من مجلس شورى الحركة. قناة تلغرام التابعة للشيخ عبد الرزاق المهدي، 30 كانون الثاني/يناير 2018، <https://t.me/abdarrazaqm2018/4619>؛ قناة تلغرام التابعة للشيخ عبد الله المحيبي، 30 كانون الثاني/يناير 2018، <https://t.me/mhesne1/3402>.

³⁹ تم التأكيد على حصول التنسيق من قبل خبير روسي في شؤون الشرق الأوسط. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، شباط/فبراير 2018. في النهاية انضمت المقاتلات التركية إلى المعركة (روسيا اليوم)، 30 كانون الثاني/يناير 2018، <https://goo.gl/gZzfXs>، *Russia Today Arabic*, 30 January 2018، دون أن يتم اعتراضها من قبل أنظمة الدفاع الجوي المتقدمة التي نصبها روسيا في المنطقة بعد تدخلها العسكري في العام 2015. انظر أيضاً

حدث خلال المحاولة الثانية التي نجحت في النهاية في 5 شباط/فبراير، يبرز التحدي الذي تواجهه موسكو في ضمان التزام النظام السوري وحلفاءه الآخرين، الذين لا يبدو أن عملية صنع القرار لديهم متماسكة دائماً.

من المرجح أن تظل مخاطر الاشتباكات قائمة بسبب غياب التماسك الداخلي لدى الجانبين والنفوذ المحدود الذي تتمتع به كل من تركيا وروسيا على كل من الطرفين. لكن إذا تصاعدت الأحداث، فإن الوجود المادي للقوات التركية قرب المناطق المحتملة للصراع وأهداف الهجمات يمكن على الأقل أن يشكل عاملاً لمنع التصاعد السريع وأن يحسن من فرص الوساطة. كما أن من شأنه أن يمنح الوقت لتقديم التحذيرات المبكرة للسكان المدنيين. ومن شأنه أن يساعد على ردع الضربات العسكرية التي يمكن أن يشنها النظام أو روسيا على المؤسسات المدنية الحيوية غير المرتبطة بالجهاديين، مثل المستشفيات والمدارس، والتي يمكن أن تحميها تركيا ضمناً بالانتشار قريباً. كما أن الوجود التركي يمكن أن يبعث بإشارة إلى موسكو بأن أنقرة مستعدة للعب دورها في "المسؤولية المشتركة" التي يذكر أنها في أساس الفهم الروسي لاتفاق أستانة.⁴¹ وهكذا سيكون من الأقل ترجيحاً أن يوافق القادة الروس على حملة يشنها النظام لاستعادة كامل المنطقة التي تسيطر عليها المعارضة المسلحة قريباً، خصوصاً إذا كان ذلك ينطوي على مخاطرة حدوث مواجهة مباشرة بين النظام والقوات التركية ودفع تركيا للخروج من أستانة.

إذا أصبح وجود القوات التركية مرتبطاً بشكل ذو مصداقية بوضع حد أو على الأقل تخفيض حدة الضربات الجوية، يمكن للضغوط الشعبية أن تتصاعد في إدلب كي تقبل هيئة تحرير الشام بالانتشار التركي في مناطق إضافية، على طول أوتوستراد حلب - حماة بشكل يقسم منطقة خفض التصعيد إلى نصفين. في حين أن المجموعات التي تشكل هيئة تحرير الشام الآن استخدمت في كثير من الأحيان عنفاً دون ضوابط ضد منافسيها، فإنها أظهرت أحياناً أنها تفضل الانخراط مع السكان المحليين من خلال الحوافز، والإقناع وبناء التحالفات لفرض السيطرة قبل اللجوء إلى العنف. وفي بعض الأحيان تراجعت حتى في وجه المقاومة المدنية.⁴²

من شأن المطالب الشعبية المتنامية لتوسيع وجود قوات خفض التصعيد أن تغير حسابات قيادة هيئة تحرير الشام وأن تعزز من موقع أولئك المستعدين للتعاون مع خفض التصعيد، رغم خطابهم العلني الذي يعارض ذلك. إذا خفت حدة هجمات النظام، فإن مزيجاً من الضغط الشعبي والإقناع التركي من شأنه أن يقوي موقع تلك الفصائل، ما يعزز قدرتها على فرض احترام وقف إطلاق النار في صفوفها. علاوة على ذلك، فإن تركيا ستتمتع بنفوذ إضافي على هيئة تحرير الشام؛ بمعنى إما أن تحترم شكلاً من أشكال خفض التصعيد أو تخسر الحماية التركية، وهو ما سيسرع هجوم النظام.

"Turkey Escalates Against Pro-Assad Forces to Protect Afrin Operation", Institute for the Study of War, 31 January 2018.

⁴⁰ محلل روسي للسياسات الخارجية المتعلقة بالشرق الأوسط اتفق مع هذا التقييم وقدم التفسير الآتي: "الحكومة السورية ليست موحدة تماماً، وهناك عدة فصائل تتصارع على النفوذ: أحدها من الصقور ومرتبطة على نحو وثيق بإيران، فصيل آخر من الحماة وقريب من الروس وفصيل ثالث بينهما ... ولهذا السبب، في رأيه، ورغم التنسيق العام للعمليات بين موسكو ودمشق، فإن بعض فصائل الجيش العربي السوري، والقوات الإيرانية أو الموالية لإيران، والمليشيات الشيعية، قد لا تتصرف طبقاً لما يتم الاتفاق عليه رسمياً بين موسكو ودمشق. ونتيجة لذلك، تنشأ حالات مثيرة للتشوش والاختلاط كهذه". مراسلة أجرتها مجموعة الأزمات بالبريد الإلكتروني، 1 شباط/فبراير 2018.

⁴¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع خبير روسي في الشأن السوري، موسكو، 13 كانون الأول/ديسمبر 2017. خبير بارز في السياسة الخارجية الروسية وصف ترتيباً لـ "سيادة مشتركة" تشارك فيها تركيا، والأردن، وروسيا والولايات المتحدة على أنه السيناريو الأكثر ترجيحاً لسورية على المدى المتوسط. خطاب في فعالية مغلقة، موسكو، كانون الأول/ديسمبر 2017.

⁴² حايدي حايدي، "مقاومة تحرير الشام. المجتمع المدني السوري على الجبهات"، تبني ثورة، تشرين الثاني/نوفمبر 2017. خلال الاقتتال بين هيئة تحرير الشام وأحرار الشام في تموز/يوليو 2017، استولت الأولى على سراقب، لكنها اضطرت للانسحاب مؤقتاً تحت ضغط الاحتجاجات السلمية. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات عبر سكايب مع أحد منظمي الاحتجاجات، 26 تموز/يوليو 2017؛ صادق عبد الرحمن، "وقائع أربعة أيام في سراقب"، الجمهورية، 19 تموز/يوليو 2017.

V. التعامل مع هيئة تحرير الشام

طبقاً لنص اتفاق أستانة، ينبغي على تركيا أن تهاجم هيئة تحرير الشام وأن تنزع سلاحها، بدلاً من تنسيق انتشاراتها، كما فعلت في تشرين الأول/أكتوبر 2017 ومرة أخرى خلال آخر انتشار لها في العيس. إلا أن من المشكوك به أن أنقرة فكرت جدياً على الإطلاق بمثل هذا التحرك. لقد كان إجماعها متجزئاً ليس فقط في تركيزها على احتواء وحدات حماية الشعب بل أيضاً على التكاليف الإنسانية وغيرها المترتبة على محاولة مواجهة المسلحين.⁴³

صحيح أن عملية تركية مدعومة بمجموعات المعارضة المسلحة المتحالفة معها قد لا تؤدي إلى مقاومة موحدة ومن المؤكد أنها ستواجه هجوماً للنظام مدعوماً بالضربات الجوية الروسية. بعض المجموعات التي أصبحت جزءاً من هيئة تحرير الشام فعلت ذلك لأن الهيئة هي اللاعب الأقوى في إدلب، إضافة إلى أنها مصدر مهم للدخل والوظائف.⁴⁴ ومن المرجح أن تنفصل عن التنظيم حالما تعتقد أنه يواجه الهزيمة على يد تنظيم أقوى، من غير النظام. آخرون قد ينسحبون أو يبذلون ولاءاتهم لأنهم لا يعتبرون تركيا عدواً.⁴⁵ لكن إذا قرر بضعة آلاف من أصل العشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف مقاتل الذين تتباهى بهم هيئة تحرير الشام حالياً الصمود، فإن الكلفة البشرية لمواجهتهم ستكون هائلة، خصوصاً إذا اندلع القتال في مدينة إدلب وأجزاء أخرى مكتظة بالسكان من القطاع الغربي، حيث سيصبح السكان فعلياً رهائن ودروعاً بشرية.

تشير التقارير إلى أن المقاتلين الأجانب سيقاومون أي عمل تركي ضد هيئة تحرير الشام، وسيقاتلون بشراسة. لقد عبر هؤلاء المقاتلون أصلاً عن عدائهم للانتشار التركي المحدود في تشرين الأول/أكتوبر.⁴⁶ كثر هم الذين قد يكونون مدفوعين بالالتزام العقائدي، لكن أيضاً بالخشية من أن التدخل التركي سيجبرهم على الخروج من ملاذهم في إدلب؛ إذ على عكس المقاتلين السوريين، فإنهم لا يستطيعون الاندماج مع السكان المحليين. في حين أن مقاتلي تنظيم الدولة الإسلامية الذين حاربهم تركيا شمال حلب في أواخر 2016 ومطلع 2017 تمكنوا من الانسحاب شرقاً إلى وادي الفرات،⁴⁷ فإن مقاتلي هيئة تحرير الشام من تركمانستان، وتونس، ومصر أو الأردن، على سبيل المثال، لا ممر نجا واضح أمامهم ومن المرجح أن يواجهوا الاضطهاد، والاعتقال وربما الموت.⁴⁸ علاوة على ذلك، وفي حين أن تدخلاً تركياً على نطاق واسع قد ينجح في انتزاع السيطرة على الأرض من هيئة تحرير الشام، فإن هذا التطور من شأنه أن يخطر بإطلاق مرحلة من الحرب غير المتناظرة التي يمكن أن تردت على تركيا وتصل إلى مدنها.

43 طبقاً لوكالة الأنباء التركية الرسمية، الأناضول، "لن تتخرب القوات التركية في إدلب في مهمة قتالية. إن المواجهة مع القوات المحلية أو قوات نظام الأسد ليس هو الهدف". الأناضول، 7 تشرين الأول/أكتوبر 2017. مسؤول في وزارة الخارجية التركية وصف المواجهة العسكرية المباشرة مع التنظيم بأنها "فكرة سيئة جداً". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، اسطنبول، تشرين الأول/أكتوبر 2017.

44 إضافة إلى ما يقدر بـ 15,000 مقاتل، فإن الإدارة المدنية لهيئة تحرير الشام توظف 7,000 شخص في سائر أنحاء سورية، أغلبيتهم الساحقة في إدلب. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع المدير العام لإدارة الخدمة المدنية والعضو في هيئة تحرير الشام، إدلب، 31 آب/أغسطس 2017. طبقاً لمصدر مقرب من المعارضة غير الجهادية، فإن مقاتلي هيئة تحرير الشام يتلقون راتباً يقدر بـ 250 دولاراً، وهو ضعف ما يتلقاه المقاتلون في الفصائل المسلحة غير الجهادية، في حين أن راتب الموظف المدني، يمكن أن يبلغ نحو 100 دولار. طبقاً لهذا المصدر، فإن هيئة تحرير الشام تأخرت بدفع رواتبها على مدى الأشهر الثلاثة الماضية. مراسلة أجرتها مجموعة الأزمات بالبريد الإلكتروني، 7 كانون الثاني/يناير 2018.

45 "Turkey's Idlib IncurSION", Charles Lister، مرجع سابق. في جميع الصراعات بين فصائل المعارضة المسلحة في إدلب، غيرت عدة مجموعات ولاءاتها عندما تغير ميزان القوى. مقاتل سابق في المعارضة يسكن في سراقب قال إنه توقع أنه "إذا تدخلت تركيا، فإن العديد من المجموعات المسلحة/الأشخاص المرتبطين رسمياً بهيئة تحرير الشام سينشقون حالما يرون قوة أكبر على الأرض. خذ على سبيل المثال مقاتلي أحرار الشام في المحكمة الشرعية في سراقب: في اليوم الذي انتصرت فيه هيئة تحرير الشام، غيروا مواقعهم. عندما تضعف هيئة تحرير الشام سيكون أول من يغير تحالفاته مرة أخرى". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات عبر سكايب، سراقب، 9 تشرين الأول/أكتوبر 2017.

46 انقسام داخل هيئة تحرير الشام بين أولئك الذين يدعمون وأولئك الذين يرفضون العملية التركية"، تلفزيون حلب، تشرين الأول/أكتوبر 2017، <https://youtu.be/kmZBCus3CFM>؛ "اللازمة التدخل التركي بين 'الولاء للكفار' و 'المضطر لارتكاب المحظور'"، المدن 9 تشرين الأول/أكتوبر 2017، www.almodon.com/arabworld/2017/10/9/.

47 "ISIS is withdrawing from al-Bab, Turkish military claims", Rudaw, 27 January 2017.

48 مصدر مقرب من المعارضة السورية غير الجهادية قدر عدد المقاتلين الأجانب الموجودين حالياً في الشمال الغربي بنحو 5,500. مراسلة أجرتها مجموعة الأزمات بالبريد الإلكتروني، 7 كانون الثاني/يناير 2018.

بدلاً من مواجهة الجهاديين، توقف الهجوم العسكري التركي في أواخر كانون الثاني/يناير ومطلع شباط/فبراير 2018 بعد أن تلقت أنقرة ضمانات أمنية صريحة من قيادة هيئة تحرير الشام.⁴⁹ وهكذا فإنها كررت الاتفاق الذي جعل الانتشار في تشرين الأول/أكتوبر ممكناً، وكان يستند على الأرجح إلى بعض الشروط التي طبقت حينها، مثل عدم التدخل في إدارة هيئة تحرير الشام.⁵⁰ قد يتبين أن هذا ثمن مكلف، كما أنه قد يحول القوات التركية إلى قوات متواطئة مع الحكم التعسفي لهيئة تحرير الشام. كما يبدو من غير المرجح أن يوافق التنظيم على تسليم أسلحته الثقيلة قريباً، لأن ذلك سيعني التخلي عن الورقة الوحيدة التي يمتلكها في أية مساومة مستقبلية.

من ناحية أخرى، فإن تسهيل الانتشار التركي إلى جبهة نشطة يشير فعلياً إلى قبول ضمني من قادة هيئة تحرير الشام بأن العمل الهجومي في المناطق المعنية ينبغي أن يتوقف، إذ إن العمليات الانتقامية للنظام ستجعل القوات التركية في خط النار. رغم التصريحات العلنية التي تفيد بالعكس، لا بد وأن يكون كبار قادة التنظيم على علم بأن وجوداً معززاً للقوات التركية في مناطق يسيطر عليها سيؤثر على هامش المناورة لديه.

إلا أن مخاطرة رئيسية تبقى قائمة؛ فالمتشددون الذين يرفضون الخطة، من هيئة تحرير الشام أو من خارجها، يمكن أن يحاولوا تقويضها بمهاجمة القوات التركية، كما كان من الممكن أن يحدث عندما عادت القافلة من أول مهمة فاشلة لها إلى العيس. تضم هيئة تحرير الشام خليطاً متنوعاً بمن فيهم موالون للقاعدة. في حين لم يتم تسجيل أية حوادث خلال المرحلة الأولى من الانتشار التركي منذ تشرين الأول/أكتوبر، ليس من الواضح ما إذا كان قادة هيئة تحرير الشام يتمتعون بما يكفي من السيطرة لمنع أولئك الذين يرفضون المزيد من التسويات من إطلاق النار على المراقبين الأتراك في المنطقة الأكبر بكثير والأكثر حساسية التي يقف فيها التنظيم في مواجهة النظام. من شأن عدد من الهجمات المستمرة التي توقع العديد من الضحايا أن تجبر القيادة التركية إما على الانسحاب أو على شن ذلك الغزو العسكري الكامل بالتحديد الذي يقول المسؤولون إنهم يريدون تجنبه.⁵¹ ولذلك ينبغي أن يمضي الانتشار التركي تدريجياً، وأن يحافظ على التواصل المستمر مع أجهزة أمن هيئة تحرير الشام والانتباه إلى ضمان أن يرى السكان المحليون مصلحة لهم في وجود القوات التركية هناك.

VI. المشهد الجهادي المتحول

لن تقتصر مقاومة التعاون مع انتشار تركي موسع على المتشددين في هيئة تحرير الشام. شرعيو التنظيم دافعوا عن تعاون محدود في مطلع تشرين الأول/أكتوبر 2017 بوصفه تنازلاً تكتيكياً في المناطق المحاذية لأرض "الكفار" (أي وحدات حماية الشعب). لكنهم رفضوا رفضاً قاطعاً أن يرقى التعاون إلى قبول ضمني بعملية أستانة.⁵² إن التمسك بمثل هذه الحجة بينما تتخذ القوات التركية مواقعها على نفس الخط الذي تم الاتفاق عليه في أستانة سيكون صعباً. يمكن توقع حدوث انشاقات عن هيئة تحرير الشام، ويمكن أن تتصاعد التحديات الداخلية لقيادة أبو محمد الجولاني ومساعديه. من غير الواضح ما إذا كان الجولاني سيتمكن من المحافظة على هيئة تحرير الشام موحدة في مثل هذه الظروف.

رغم ذلك، يبدو أن قادة هيئة تحرير الشام وجدوا أسباباً مقنعة للقبول بانتشار تركي أعمق. يتمثل أحد هذه الأسباب في أن الموقف التركي المتساهل قد يتغير، خصوصاً إذا تطورت العلاقات التركية مع روسيا، وإذا حققت هدفها في استعادة عفرين من وحدات حماية الشعب أو إذا استنتجت أنقرة أنها فقط بالقيام بالغزو أولاً – وإدارة أي عمليات نزوح تحدث نتيجة ذلك – يمكنها أن تستبق هجوماً شاملاً للنظام يمكن أن يؤدي إلى

49 انظر الحاشية 38 أعلاه.

50 سكان محليون اتصلت بهم مجموعة الأزمات في مطلع كانون الثاني/يناير أكدوا أنه لا يزال هذا هو الحال. اتصالات أجرتها مجموعة الأزمات عبر الواتس أب، 2-4 كانون الثاني/يناير 2018. التبرير الذي قدمه أحد شرعيي هيئة تحرير الشام، أبو الفتح الفرغلي، للتعاون مع انتشار كانون الثاني/يناير – شباط/فبراير أكد هذه النقطة، وكان يشبه بشكل كبير المنطق الذي طرحه خلال المرحلة الأولى في تشرين الأول/أكتوبر (انظر الحاشية 12 أعلاه). تغريدة لابن نبيه، 2 شباط/فبراير 2018، <https://twitter.com/IbnNabih1/status/959515106953584642>.

51 مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين أترك، اسطنبول وأنقرة، تشرين الأول/أكتوبر 2017.

52 "Tahrir al-Sham official on Turkey's intervention to implement Astana: 'That's not the reality'." تغريدة لسام هيلر @AbuJamajem يقبس فيها قناة تلغرام للمسؤول الإعلامي في هيئة تحرير الشام، محمد نزال، 15 تشرين الأول/أكتوبر 2017، <https://t.me/mohammednazzal/1526>.

أزمة لجوء أخطر. بالنظر إلى الانتكاسات العسكرية الأخيرة، فإن فصائل هيئة تحرير الشام استثمرت في بناء مجتمع يحكمه تفسيرها الخاص للشريعة والقيم الإسلامية، وقد تكون أدركت أنها دون التوصل إلى تسوية مع تركيا فإن مشروعها محكوم بالفشل. وثمة اعتبار ثالث قد يكون ساعد في التوصل إلى هذا القرار، ويتمثل في رغبة هيئة تحرير الشام في المحافظة على قوتها الحالية كأساس لدور في النظام السياسي في مرحلة ما بعد الصراع.

المسؤولون الأتراك من جهتهم يعيرون عن تفضيلهم لاستغلال التناقضات الداخلية في هيئة تحرير الشام، بهدف فصل العناصر الأكثر براغماتية، وهم سوريون في معظمهم، وأكثر انفتاحاً على التعاون، عن أولئك الذين يعتبرونهم أقلية جهادية متشددة يطغى عليها العنصر الأجنبي.⁵³ ثمة انقسامات عميقة؛ فمئذ أيلول/سبتمبر، جرى على الأقل ثلاثين عملية اغتيال لم يعلن أي طرف مسؤوليته عنها ولم يتم تحميل مسؤوليتها لأحد استهدفت كبار شرعيي التنظيم وقادته العسكريين، والعديد منهم من الأجانب.⁵⁴

في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2017، اعتقلت هيئة تحرير الشام عدداً من كبار القادة الذين يعتبرون موالين للقاعدة. وانشق قادة آخرون. في الواقع فإن زعيم القاعدة أيمن الظواهري أصدر عدة تصريحات يعبر فيها عن عدم موافقته الضمنية على الاتجاه الذي يأخذ به الجولاني هيئة تحرير الشام، خصوصاً رفض فك الارتباط في تموز/يوليو 2016 بين جبهة النصرة، التي يقودها الجولاني أيضاً، والتي انبثقت منها هيئة تحرير الشام، وبين القاعدة.⁵⁵ المنظر الجهادي المخضرم والمؤيد للقاعدة أبو محمد المقدسي انتقده أيضاً.⁵⁶

القرار الأخير بالتعاون مع انتشار تركي في أجزاء من الجبهة يشير إلى أن التيار داخل هيئة تحرير الشام الذي سعى للنأي بنفسه عن القاعدة والأكثر انفتاحاً على التعاون مع أنقرة له اليد العليا، على الأقل في المرحلة الراهنة. في 26 كانون الثاني/يناير، أزال اغتيال عطية الله الشامي، قائد جبهة حلب في هيئة تحرير الشام، خصماً بارزاً آخر لمثل هذا التعاون. إلا أن من شأن مثل هذا الاتفاق الصريح مع تركيا أن يعزز القوة النابذة في تنظيم يبدو منقسماً أصلاً ويمكن أن يؤدي إلى انهياره، وكذلك إلى الاقتتال وإلى مزيد من التدهور في أوضاع المدنيين.

حتى لو كان هناك جناح أكثر براغماتية داخل هيئة تحرير الشام مستعد للسماح بشكل من أشكال الدور التركي الرادع على خطوط الجبهة، سبتطلب ذلك تعديلات جديّة في المواقف العقائدية للجهاديين وسلوكهم قبل أن تتمكن أي مجموعة أو قيادة تخرج من أنقاض هيئة تحرير الشام/النصرة أن تقدم نفسها بوصفها النظير المحاور المحلي المستعد للعب دور سياسي.⁵⁷ ستبحث روسيا والقوى الغربية عن أدلة ذات مصداقية بشكل خاص على أن إدلب لن تصبح ملاذاً آمناً وقاعدة عمليات للتخطيط لعمليات خارج سورية. وقد تتوقع روسيا أن تؤدي الجهود التركية في إدلب إلى تعزيز عملية أستانة؛ إلا أن احتمال حضور قادة المقاتلين لأي شكل من أشكال محادثات السلام قريباً يبدو بعيداً. بالنسبة لسكان إدلب، سيزترتب على هيئة تحرير الشام أن تعدل سلوكها محلياً أيضاً.

⁵³المسؤولون الأتراك لاحظوا أن أنقرة تلقت عدة إشارات من هيئة تحرير الشام تعبر عن الانفتاح على تحويل تركيز التنظيم نحو الإدارة المحلية، والتعبير عن الثقة بأن الأغلبية الساحقة من الأعضاء السوريين في هيئة تحرير الشام يمكن دفعهم في هذا الاتجاه. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين أكراد، أنقرة واسطنبول، تشرين الأول/أكتوبر 2017.

⁵⁴Haid Haid, "Who Is Assassinating Hay'at Tahrir Al-Sham's Leaders?", Syria from Within (Chatham House), November 2017. تشارلز لستر يقول إن تركيا هي التي توجه وتمول الاغتيالات، مقتبساً مصادر في المعارضة السورية. "التوغل التركي في إدلب"، المرجع السابق.

⁵⁵"الظواهري يهاجم الجولاني: لم نقبل بفك الارتباط"، المدن، 29 تشرين الثاني/نوفمبر 2017. قناة تلغرام التابعة للشيخ أبو محمد المقدسي، <https://t.me/SHMaqdese/1772>.

⁵⁶انظر "Diluting jihad"، Bunzel، مرجع سابق.

⁵⁷مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في وزارة الخارجية الأميركية، واشنطن، 14 تشرين الثاني/نوفمبر 2017. في تشرين الأول/أكتوبر، قال مسؤول في وزارة الخارجية إنه "في إدلب، ينبغي التعامل مع وجود القاعدة ... لا نستطيع ترك تركيا وروسيا تجمدان الوضع لصالح القاعدة. ينبغي القضاء عليها". على النقيض من ذلك، مسؤول في مجلس الأمن القومي عبر عن قلقه من الوسائل التي قد تستعملها موسكو لتحقيق هذه الغاية: "ثمة توتر بين محاربة الإرهاب والانحياز إلى أحد الأطراف في حرب أهلية. لا ينبغي لمحاربة الإرهاب أن تتسبب بأضرار كبيرة؛ لا ينبغي أن تكون المسألة مسألة استعادة مدن". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، واشنطن، 15 تشرين الثاني/نوفمبر 2017.

VII. الخلاصة: خيارات محدودة فيما يخص إدلب

ليس هناك خيارات جيدة لمعالجة الوضع المتدهور في إدلب. من المرجح أن تؤدي الحملات العسكرية الهادفة إلى إخضاع أو إخراج هيئة تحرير الشام إلى تصعيد لا يمكن السيطرة عليه ينطوي على تكلفة إنسانية مروعة، خصوصاً إذا شنت من قبل النظام وحلفائه، ما سيدفع مجموعات المعارضة المسلحة المتناحرة غالباً إلى التوحد ضد عدو مشترك.⁵⁸

حتى إذا نجحت مثل هذه العمليات في إلحاق الهزيمة العسكرية بهذه المجموعات ووضعت حداً لسيطرتها العسكرية على الأرض، فإنها من غير المرجح أن تنهي التحدي الجهادي. قد تكون النتيجة مرحلة طويلة من الحرب غير المتناظرة، في سورية وربما خارجها، مع تراجع بقايا المجموعات المنهزمة إلى المناطق الخارجة عن الحكم وإلى دول ضعيفة في سائر أنحاء المنطقة أو العودة إلى أوروبا، وروسيا وآسيا الوسطى. لقد جادل كبار منظري القاعدة أصلاً ومنذ أشهر بأن على هيئة تحرير الشام التخلي عن محاولتها الاحتفاظ بالأرض والتحول إلى حملة غير متناظرة.⁵⁹

إن انتشار تركيا قرب خط الجبهة يقلص خطر التصعيد، لكنه يأتي مع مخاطر مرتفعة، كما أظهرت الصعوبات التي واجهتها في أواخر كانون الثاني/يناير ومطلع شباط/فبراير. إذا تبين أن الخطوة الأولى للانتشار على طول خط الجبهة والتمركز هناك سيشكل تحدياً، فإن فصل المقاتلين المستعدين للعب دور سياسي عن الموالين للقاعدة، كما تحاول تركيا فعله منذ بعض الوقت، سيثبت أنه أكثر صعوبة. لكن مع اقتراب قوات النظام من المناطق الرئيسية التي تسيطر عليها المعارضة المسلحة، فإن تلك هي الخيارات الوحيدة المتبقية لإقناع موسكو بعدم دعم هجوم يشنه النظام، ولتحاشي كارثة إنسانية ستنتج ذلك الهجوم.

إضافة إلى المخاطر الماثلة، فإن أحد العوامل التي رددت تركيا عن الاستثمار بشكل كامل في جهود تغيير التوازن الداخلي في هيئة تحرير الشام كان تخوفها من غياب الدعم الدولي. في الأساس، قوبل الاتفاق غير الرسمي والمحدود جغرافياً مع هيئة تحرير الشام والذي جعل من أول انتشار تركي في تشرين الأول/أكتوبر ممكناً قوبل بالتخوف في العواصم الغربية.⁶⁰ إن تفاهماً موسعاً ولا يمكن إنكاره مع تنظيم لا يزال الإجماع الدولي الواسع يصنفه على أنه تنظيم إرهابي سيكشف القيادة التركية أمام اتهامات بالتواطؤ الضمني مع الحركة الجهادية في الداخل – حيث تجرى الانتخابات في 2019 – وفي الخارج، مما يمكن أن يعمق عزلتها عن شركائها في الغرب.⁶¹ يبدو أن الغرب، وخصوصاً الولايات المتحدة، أكثر انشغالاً في

⁵⁸ هجوم النظام جنوب حلب وشمال حماة منذ خريف 2017 أكد جزئياً هذا التوقع، حيث شوهد توحد مجموعات متنافسة ومتناحرة مع هيئة تحرير الشام وانضمامها إلى القتال ضد النظام. "أحرار الشام تدخل معارك ريف حماة الشرقي"، **عنب بلدي**، 14 كانون الأول/ديسمبر 2017، www.almodon.com/arabworld/2017/12/14/، "المعارضة والهيئة: إعادة ضبط العلاقات على إيقاع المواجهة الكبرى"، المدن، 14 كانون الأول/ديسمبر 2017، <http://www.almodon.com/arabworld/2017/12/14/>. عقد قادة مجموعات معارضة مسلحة رئيسية، بما فيها هيئة تحرير الشام، وأحرار الشام ونور الدين الزنكي، اجتماعات في كانون الأول/ديسمبر 2017 لمناقشة تشكيل غرفة عمليات مشتركة لصد هجوم النظام. "في اجتماع حضره الجولاني، صلح جديد ومحاولات إعادة إحياء جيش الفتح"، **زمان الوصل**، 12 كانون الأول/ديسمبر 2017، www.zamanalwsl.net/news/article/83334/، "فصائل الشمال تشكل غرفة عمليات موحدة"، **أورينت نيوز**، 4 شباط/فبراير 2018، <http://bit.ly/2FTX4hE>.

⁵⁹ المناظرة بين هذه المقاربات المتعارضة مستمرة منذ مدة. وهي تتداخل مع الانقسامات بين الموالين للقاعدة وتلك الفصائل في هيئة تحرير الشام التي تدفع بأجندة أكثر استقلالاً. في رسالة صوتية صدرت في نيسان/أبريل 2017، حث زعيم القاعدة أيمن الظواهري الجهاديين في سورية على التحول نحو حرب عصابات واستنزاف لا تركز على الاحتفاظ بالأرض بل على "تدمير معنويات العدو" بتكبيده خسائر لا يستطيع تحملها. "الشام لن تترك إلا لله"، 23 نيسان/أبريل 2017، <https://videopress.com/v/foXrEFx6>. الشرعي الأردني سامي العريضي، إحدى الشخصيات التي تم اعتقالها في 27 تشرين الثاني/نوفمبر (وأطلق سراحه لاحقاً)، انتقد مؤخراً قادة هيئة تحرير الشام على استسلامهم لـ "نشوة" زخرف الدولة والسيطرة على الأرض، بينما يقدمون التنازلات في المبادئ الدينية والعقائدية سعياً للحصول عليها، وحث على التحول إلى حرب عصابات بدلاً من ذلك. قناة تلغرام (أخبار الدكتور سامي العريضي)، 29 كانون الأول/ديسمبر 2017، https://t.me/ahmad_ahmad_12/2552.

⁶⁰ مسؤول في وزارة الخارجية الأميركية عبر عن تخوفه قائلاً: "لسنا متأكدين مما يعتقد الأتراك أنهم يفعلونه في إدلب. يبدو أنهم يعقدون اتفاقات مع بعض الأشخاص السيئين فعلاً". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، واشنطن، 14 تشرين الثاني/نوفمبر 2017.

⁶¹ مسؤول أمني تركي حدد انعدام الثقة وغياب مشاركة الحلفاء الغربيين بوصفهما رادعين مهمين للمقاربات التركية للتعامل مع هيئة تحرير الشام. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، أنقرة، تشرين الأول/أكتوبر 2017.

أماكن أخرى، مثل الجنوب الشرقي والمناطق الواقعة شرق الفرات والتي تسيطر عليها قوات سورية الديمقراطية المرتبطة بوحدات حماية الشعب، وبمسارات تفاوضية دولية متنافسة (جنيف وأستانة)، وبضبط الضرر الذي تحدثه المواجهة بين تركيا ووحدات حماية الشعب، بحيث لا يبقى لديها من الجهد ما يكفي لمعالجة الوضع شديد التعقيد في الشمال الغربي.⁶²

لكن كلما ترك الوضع ليتفاعل لفترة أطول، كلما تعزز الاعتقاد أن المواجهة العسكرية أمر محتوم. كما تشير الأحداث في أواخر كانون الثاني/يناير ومطلع شباط/فبراير، فإنه يمكن إقناع هيئة تحرير الشام بالتعاون مع ترتيبات تقلص حدة العنف. على شركاء تركيا في الغرب، وأيضاً القوى المشاركة في أستانة، منح تركيا الوقت – وحتى ضوء أخضر ضمني – لاستكشاف إلى أي حد يمكن إقناع التنظيم بقبول ترتيبات على الأرض من شأنها تقليل خطر التصعيد وإلى تراجع تدريجي في القتال.

ولا يزال من غير الواضح ما إذا كانت روسيا، التي يعد تقييدها للنظام أمراً حاسماً، ستقبل مثل هذه الخطة. رغم براغماتية موسكو مع مجموعات إسلامية وسلفية أخرى – صنفت بعضها إرهابية منذ وقت طويل قبل أن تقبل بمشاركتها في أستانة – فإن الموقف الروسي حيال النصر وهزيمة تحرير الشام كان ثابتاً (كما كان موقف الولايات المتحدة في الواقع). لكن بالنسبة لموسكو، فإن بديل منح تركيا المزيد من الوقت لمتابعة مسار دبلوماسي هو نشوب معركة بشعة في إدلب، والتعرض للمزيد من الانتقادات الدولية بسبب الدمار الذي لا بد أن يحدث وتدهور محتمل للعلاقات مع أنقرة، وحتى وضع حد لنهاية عملية أستانة إذا تسبب هجوم النظام في أزمة لجوء أخرى في تركيا. بالمقابل، إذا تمكنت تركيا من دفع أجزاء من هيئة تحرير الشام نحو خفض التصعيد، فإن الأطراف المتبقية في التنظيم والتي لا يمكن التصالح معها سيكون من الأسهل على الأرجح التعامل معها.⁶³

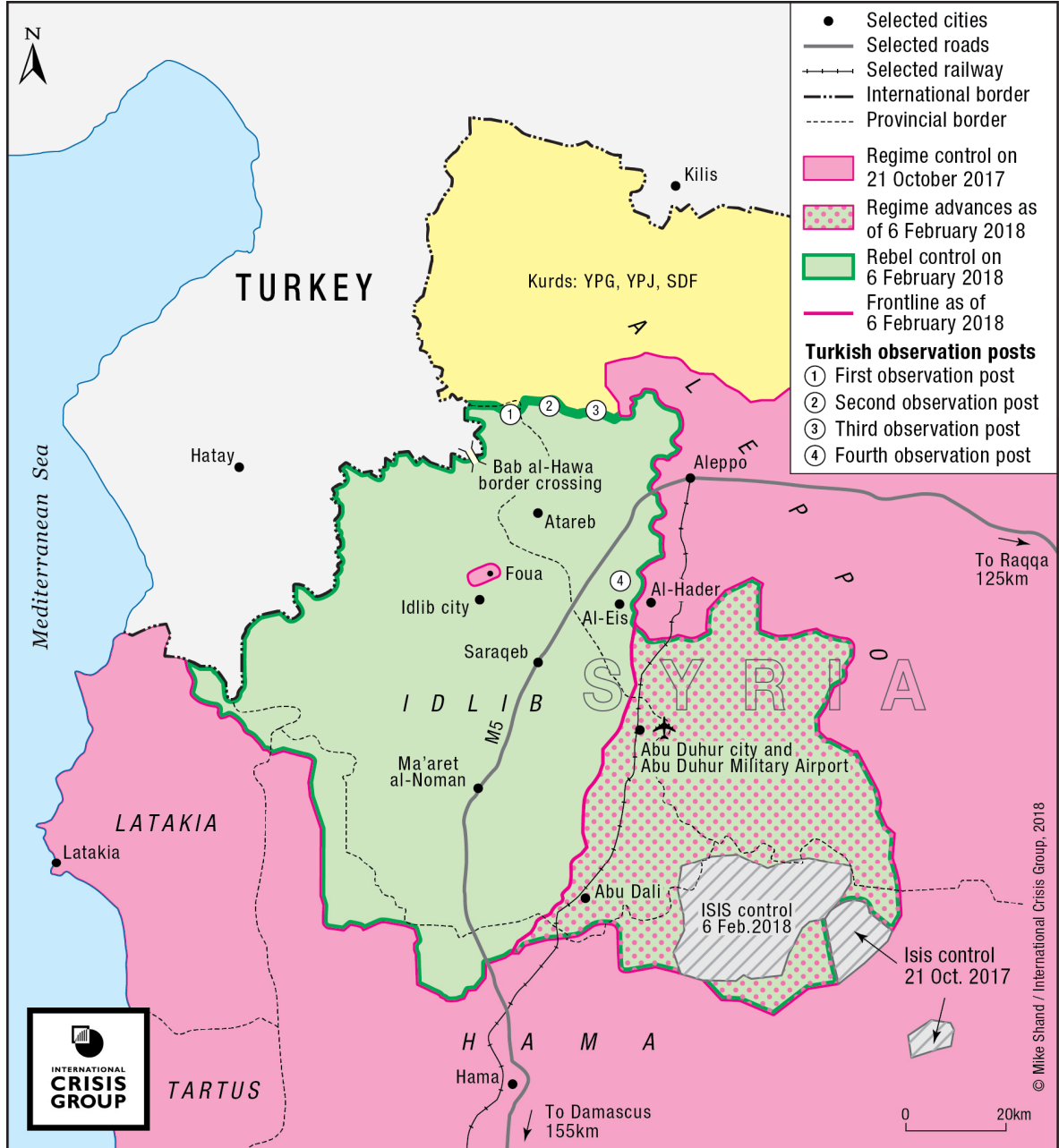
من المؤكد أن خطة كهذه تحمل مخاطرة هائلة. حتى إذا حققت درجة من النجاح من حيث تقليص حدة العنف، فإن التنظيمات التي تسيطر حالياً في إدلب من غير المرجح أن تحول نفسها قريباً – هذا إذا فعلت ذلك على الإطلاق – إلى شكل من أشكال "المعارضة الإسلامية المعتدلة" التي حاول بعض داعمي المعارضة السورية دعمها من قبل. إلا أن انتشاراً تركيا على طول خط الجبهة وانخراطاً تركيا محدوداً مع هيئة تحرير الشام ينبغي أن ينظر إليه على أنه أفضل الخيارات السينة المتاحة. هذه الخطوات ستشترى بعض الوقت، وستنزح التهديد بقيام النظام بشن هجوم شامل سيتسبب بتبعات إنسانية كارثية وستخلق الظروف لوقف إطلاق نار أكثر استدامة. قلة في إدلب سيكونون راضين عن مثل هذه الإجراءات المؤقتة، لكن على الأقل في الشهور القادمة، تبقى أفضل من البدائل المحتملة.

بيروت/بروكسل، 9 شباط/فبراير 2018

⁶² مسؤول كبير في وزارة الخارجية الأميركية قال: "بدأنا في منطقة خفض التصعيد في الجنوب لأننا نتمتع بنفوذ جيد على المعارضة المسلحة". ... الروس هم الذين يقدون العملية هناك [إدلب]. هم تصدوا لها، ولذلك ندعمهم يعالجونها". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، واشنطن، 14 تشرين الثاني/نوفمبر 2017. خبيرة روسية في الشؤون السورية قالت إنها تتوقع أن تتبنى موسكو موقفاً براغماتياً: "السبب الذي يدفعنا للتعاون مع تركيا في إدلب هو أننا نعرف أنهم يستطيعون التحدث إلى هؤلاء الناس [الجهاديين]. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، موسكو، 13 كانون الأول/ديسمبر 2017.

⁶³ الدور العسكري لروسيا، خصوصاً لقواتها الجوية، يعطي موسكو مقعد القيادة في إدلب، ويجعلها الشريك الأكثر أهمية لتركيا في شمال سورية. من ناحية أخرى، فإن النفوذ الإيراني يبدو محورياً أيضاً لإقناع النظام بقبول هذا الترتيب. لكن ورغم كونهما "ضامنين" لمنطقة خفض التصعيد، فإن إيران وتركيا غير متفقتين تماماً. دبلوماسي إيراني قال: "أستانة شرعت الوجود التركي في سورية، الذي بات الآن أقوى من قبل. لا مشكلة لنا مع الوجود التركي في منطقة خفض التصعيد، لكن ذلك غير مريح. هيئة تحرير الشام هي القاعدة؛ وهي كتنظيم الدولة الإسلامية. علينا أن نواجهها. الأتراك لا يتصرفون بشكل منطقي [بالعمل مع هيئة تحرير الشام]. [تركيا] تريد السيطرة على مجموعات في إدلب لرسم خط أمني وضم إدلب إلى إسكندرون. وهي تريد استخدام إدلب كورقة في المفاوضات. اللاجون مجرد تبرير". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في وزارة الخارجية، طهران، كانون الثاني/يناير 2018.

الملحق آ. هجوم النظام السوري باتجاه إدلب، 21 تشرين الأول/أكتوبر 2017 – 6
شباط/فبراير 2018



الملحق ب: حول مجموعة الأزمات الدولية

مجموعة الأزمات الدولية (مجموعة الأزمات) هي منظمة مستقلة غير ربحية وغير حكومية، تضم حوالي 120 موظفاً في خمس قارات يعملون من خلال التحليل الميداني وحشد الدعم وممارسة الإقناع على المستويات العليا من أجل منع وتسوية النزاعات الخطيرة.

تقوم مقارنة مجموعة الأزمات على أساس البحث الميداني، حيث تعمل فرق من الباحثين السياسيين داخل أو بالقرب من الدول التي يوجد فيها خطر لاندلاع أو تصاعد أو تكرار حدوث صراع عنيف. وبناء على المعلومات والتقييمات المستقاة من الميدان تقوم بإعداد تقارير تحليلية تتضمن توصيات عملية موجهة إلى كبار صناع القرار الدوليين. كما تقوم مجموعة الأزمات بنشر *كرائيسيس ووتش* وهي نشرة شهرية تقدم الإنذار المبكر وتحديثاً واضحاً ومنتظماً حول وضع ما يصل إلى 70 حالة صراع فعلي أو محتمل في سائر أنحاء العالم.

يتم توزيع تقارير مجموعة الأزمات بشكل واسع عبر البريد الإلكتروني، وتتوافر في نفس الوقت على موقعها على الإنترنت: www.crisisgroup.org. تعمل مجموعة الأزمات بشكل وثيق مع الحكومات والأطراف التي تؤثر على الحكومات، بما في ذلك الإعلام، من أجل إبراز تحليلاتها حول الأزمات وحشد التأييد لتوصياتها بشأن السياسات.

يعمل مجلس أمناء مجموعة الأزمات – الذي يضم شخصيات بارزة في مجالات السياسة والدبلوماسية والأعمال والإعلام – بشكل مباشر في المساعدة على إيصال هذه التقارير والتوصيات إلى انتباه كبار صناع السياسات في سائر أنحاء العالم. يرأس مجموعة الأزمات النائب السابق للأمين العام للأمم المتحدة والمدير الإداري لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، اللورد مارك مالوخ – براون. نائب الرئيس هو أبو أوبي، وهو محام، وكاتب زاوية رأي ومقدم برامج في نيجيريا.

رئيس مجموعة الأزمات ومديرها التنفيذي، جان – ماري غيهينو، عمل نائباً للأمين العام للأمم المتحدة لعمليات حفظ السلام بين عامي 2000 و2008، وفي عام 2012 نائباً للمبعوث الخاص للأمم المتحدة والجامعة العربية إلى سورية. ترك هذا المنصب ليرأس اللجنة التي أعدت الكتاب الأبيض حول الدفاع والأمن الوطني الفرنسي عام 2013.

يوجد المقر الرئيسي لمجموعة الأزمات الدولية في بروكسل، كما أن لها مكاتب في عشرة مواقع أخرى هي: بيشيك، وبوغوتا، وداكار، وكابول، وإسلام آباد، وإسطنبول، ونيروبي، ولندن، ونيويورك، وواشنطن دي سي. كما أن لها موظفين يمثلونها في المواقع الآتية: أبوجا، والجزائر، وبانكوك، وبيروت، وكراكاس، ومدينة غزة، ومدينة غواتيمالا، وهونغ كونغ، والقدس، وجوهانسبرغ، وجوبا، ومكسيكو سيتي، ونيودلهي، والرباط، وصنعاء، وتبليسي، وتورنتو، وطرابلس، وتونس، وبانغون.

تتلقى مجموعة الأزمات دعماً مالياً من طيف واسع من الحكومات والصناديق والمنتبرعين الأفراد. تقيم مجموعة الأزمات حالياً علاقات مع الدوائر والهيئات الحكومية الآتية: الوكالة الأسترالية للتنمية الدولية، الوكالة النمساوية للتنمية، وزارة الخارجية الدنماركية، وزارة الخارجية الهولندية، آلية الاتحاد الأوروبي للمساهمة في الاستقرار والسلام، وزارة الخارجية الفنلندية، وكالة التنمية الفرنسية، وزارة الدفاع الفرنسية، وزارة الخارجية الفرنسية، وزارة الخارجية الاتحادية الألمانية، هيئة الشؤون العالمية الكندية، مؤسسة المساعدات الأيرلندية، إمارة ليختنشتاين، وزارة خارجية اللوكسمبورغ، ووزارة الخارجية والتجارة النيوزيلندية، ووزارة الشؤون الخارجية النرويجية، ووزارة الشؤون الخارجية السويدية، وزارة الشؤون الخارجية الاتحادية السويسرية.

ترتبط مجموعة الأزمات بعلاقات مع المؤسسات التالية: مؤسسة كارنيغي في نيويورك، ومؤسسة هنري لوس، وهيوامانتي يوناييتد، ومؤسسة جون دي وكاترين تي ماكارثر، ومؤسسة أوك، ومؤسسات جمعية أوبن سوسيتي، ومؤسسة بلوشيرز، ومؤسسة روبرت بوش ستيفنونغ، ومؤسسة ويلسبرينغ الخيرية.

شباط/فبراير 2017



International Crisis Group

Headquarters

Avenue Louise 149, 1050 Brussels, Belgium

Tel: +32 2 502 90 38. Fax: +32 2 502 50 38

brussels@crisisgroup.org

New York Office

newyork@crisisgroup.org

Washington Office

washington@crisisgroup.org

London Office

london@crisisgroup.org

Regional Offices and Field Representation

Crisis Group also operates out of over 25 locations in Africa, Asia, Europe, the Middle East and Latin America.

See www.crisisgroup

PREVENTING WAR. SHAPING